سيبويه وأصوات اللغة[1]

أ. د. أحمد محمد قدّور (*)

سيبويه إمام النحاة بعد الخليل، وهو عمرو بن عثمان بن قنبر، ولد في الأهواز، وقيل بالبيضاء من أعمال اصطخر بفارس، وهاجر أهله إلى البصرة. وفي البصرة نشأ وطلب العلم، وصحب الفقهاء وأهل الحديث، ثم لازم الخليل. كما ارتاد شيوخ النحو في عصره، كالأخفش الأكبر (عبدالحميد بن عبدالمجيد)، ويعقوب بن إسحق الحضرمي المتوفى سنة 205 للهجرة، وعيسى بن عمر المتوفى سنة 149 للهجرة، ويونس بن حبيب المتوفى سنة 183 للهجرة، وغيرهم. وخلّف سيبويه أثراً فذّاً، هو "الكتاب" الذي يرجّح أنه لم يسمِّه باسم معيّن، إذ مات شاباً، فلم يتمكّن من معاودة النظر فيه وتسميته واستتمامه، كما يقول عبدالسلام هارون محقّق الكتاب. كما أنّ الكتاب يخلو من مقدمة أو خطبة، كما يخلو من خاتمة، كما كانت عادة العلماء في عصره. وقد بلغ الإعجاب بالكتاب حدّاً جعل الناس يسمّونه "قرآن النحو"، ولذلك كان بعضهم يختمه كل خمسة عشر يوماً، كأنما يتلوه تلاوةَ القرآن![2].

وكتاب سيبويه كتاب جامع في النحو والصّرف والأصوات، وما يتعلق بها من لغات العرب وأشعارهم ومواضعاتهم في أساليب الكلام. لكن أسلوب الكتاب فيه كثير من الغموض، وفيه مايحتاج إلى تفسير وشرح. ولذلك وقر في نفوس القوم أنه كتاب صعب، ولذلك قيل لمن يرغب في قراءته وفهمه: هل ركبت البحر؟ استعظاماً لشأنه. ولما مات سيبويه سنة 180 للهجرة، وخلّف كتابه لتلاميذه وعارفي فضله وغيرهم أثار حركة علمية واسعة امتدت قروناً، إذ مازال يملأ الدنيا ويشغل الناس. وكذلك فالحاجة مازالت في عصرنا ماسّة إلى مراجعة مسائل الكتاب، وتفهّم مقاصد سيبويه من كلامه، واستنباط آرائه، وتعرّف مصطلحاته.

وقد قيل في نحو سيبويه قديماً وحديثاً ماقيل، وهو تراث عظيم وأساس مكين لأرباب الصناعة والمشتغلين بالعلم. كما قيل في صرفه، وما أبدعه في مسائل اللغة الكثير. أما درسه الصوتي فقد توزّعه كتابه بين مباحث نظرية وأخرى تطبيقية عرض فيها للإبدال والإعلال والإدغام ونحو ذلك. كما عرض خلاصة للدرس النظري للأصوات في مقدمة باب الإدغام، وهو

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

(1) محاضرة ألقيت بدعوة من السيد رئيس المجمع في الساعة السادسة من مساء يوم الأربعاء العشرين من ربيع الأول 1432 للهجرة، الموافق للثالث والعشرين من شباط 2011 للميلاد في قاعة الدكتور أحمد منيف العائدي للمحاضرات في المجمع الزاهر.انظر : سيبويه، الكتاب، تحقيق عبدالسلام هارون، 3/1-32.

(2) انظر: سيبويه، الكتاب، تحقيق عبدالسلام هارون، 3/1- 32.

آخر باب في الكتاب. على أن سيبويه نثر ملحوظات علمية تتعلّق بالأصوات في تضاعيف مسائل الكتاب المتقدمة، وأحال في بعضها إلى ماسيأتي من حديث في باب الإدغام. وربما كان ذلك سبباً يفسّر إيجازه في الحديث عن المسائل النظرية في مطلع باب الإدغام، إذ تقدّم الكثير مما يشبهها في مواضع كثيرة سابقة.

وربما يتساءل المرء عن دواعي هذه المحاضرة وجدواها في ضوء كثرة من عرض لهذا الموضوع، وصعوبة التجديد فيه، أو الإضافة والتوجيه. لكنّ الأمر كما يبدو مختلف، إذ تأكد حديثاً لديّ أنّ الخليل هو رائد الدرس الصوتي أصالة، ولذلك يبدو ضرورياً الرجوع إلى هذا الدرس الذي لم يكن يحظى بالاهتمام بحجة أن كتاب العين ليس ثابت النسبة إلى الخليل، وأن ماجاء فيه ماهو إلا روايات يعتريها الكثير من الخلط والتناقض، وأن سيبويه شذّ عن الخليل في درسه الصوتي، إذ خالفه، ولم يشر إلى آرائه ألبتة. كما بات ضرورياً كذلك ردّ التهمة عن سَيبويه في درسه الصوتي الذي زعم بعضهم أنه غامض ومعقّد، لأن سيبويه لم يفهم الأصوات كما فهم النحو، أستغفر الله! وصار مهماً إعادة فحص ما أنجزه سيبويه في تعريف الجهر بالاستئناس بما ظهر في اللسانيات، ولا سيما الدراسات الصوتية منها. على أن الإشادة بسيبويه تكفي وحدها سبباً لهذه المحاضرة التي تغرف من روحه:

أيُهــدى لهــا درّ التقــاريظ والثنــا ومن بحرها الفيّاض يستخرج الدرّ؟

وسنقسم هذه المحاضرة ثلاثة أقسام، هي:

1- شرح المصطلحات المستعملة في المحاضرة.

2- تعليق على محاضرة للمستشرق "شادة" حول الأصوات عند سيبويه.

3- ملخص للدرس النظري للأصوات لدى سيبويه في ضوء الدرس الحديث.

4- مفهوم الجهر والهمس لدى سيبويه، وما جدَّ من تفسير له لدى المحاضر.

أولاً: شرح المصطلحات المستعملة في المحاضرة

اقترحت لجنة النشاط الثقافي في مجمعنا الزاهر حين عُرض عليها ملخص هذه المحاضرة أن أعرض شرحاً للمصطلحات التي سترد فيها، وقد نزلت عند هذا الاقتراح، وامتثلت لهذه الرغبة الكريمة التي نقلها إليّ أستاذي الدكتور محمود السيّد نائب رئيس المجمع. وهذا ملخص لما هو مطلوب:

1- الجهر: مصطلح عربي قديم، اختلف في تعريفه، ويدلّ حديثاً على قوّة إسماع تنتج عن اهتزاز الوترين الصوتيين داخل الحنجرة.

2- الهمس: وهو مصطلح عربي قديم أيضاً، ويدلّ على ضدّ ماتقدّم، إذ لايهتزّ الوتران معه، فيخرج الصوت خافتاً أو ضعيفاً.

3- الـوتران الصـوتيان: وهـو مصـطلح حـديث ظهـر فـي درسـنا ترجمـة لمصـطلح (vocal cords)[1] وهما تشريحياً عبارة عن نتوء رفّي يتألف من عضل ووتر وغشاء مخاطي. وهما يمتدّان على الجدارين الداخليين للحنجرة من الخلف حيث يكونان متباعدين، وإلى الأمام حيث يلتقيان عند مايدعى بتفاحة آدم من الداخل، ولهما قدرة على الحركة والاهتزاز. ومع أنهما ليسا وترين أو حبلين تماماً، فإن بعض الدارسين يرون ذلك من باب المجاز. وعلى ذلك جرت كتب التشريح التي عبّرت عنهما بالأحبال جمعاً، أو الحبلين مثنى. أما أهل الاختصاص فأكثرهم على استعمال الأوتار أو الوترين منذ عام 1947، على حين أن بعضهم مازال يستعمل الأحبال، أو الحبلين. والوتران مثنى حقيقة، أما الأوتار جمعاً فهي من الترجمة عن لغات لامثنى فيها[2].

4- الوضـوح السـمعي: وهـو مصـطلح حـديث ظهـر فـي درسـنا الحـديث ترجمـة لمصـطلح (sonority)، ويدلّ على قوّة الوضوح السمعي للصوت الذي تتحكم فيه عوامل مثل علوّ الصوت أو طوله. ويستعمل أيضاً للدلالة على مايدلّ عليه الجهر، لكن على المستوى السمعي لاالنطقي غالباً، ويمكن أن يستعمل مع حركة الوترين[3].

5- الجهر (مع ذبذبة الوترين)، وهو مطابق لمصطلح (voiced) الأجنبي.

6- الهمس (عدم ذبذبة الوترين)، وهو مطابق لمصطلح (voiceless) [4] الأجنبي. ويختلف هذان المصطلحان عن مصطلحات أجنبية أخرى تدل على الجهر والهمس، لكنْ على المستوى الأكوستيكي (السمعي)، نحو مصطلح (Éclatante) و (Étouffeé) [5].

7- الشـديد: وهـو الصـوت الـذي ينـتج عـن انسـداد، أو حـبس تـام للهـواء، وهـو الـوقفي والانسدادي والانفجاري كذلك. والشديد: مصطلح قديم له شروح حديثة.

8- الرِّخـو: وهـو الصـوت الـذي ينـتج عـن احتكـاك الهـواء بالعضـوين الحاصـرين، وهـو الاحتكاكي والانسيابي. والرخو: مصطلح قديم له شروح حديثة أيضاً.

9- الصامت: وهو الصوت الذي ينتج عن انسداد المجرى الصوتي، أو تضييقه، ويدعى بالصحيح كذلك.

---

(1) انظر: محمد علي الخولي، معجم علم اللغة النظري، ص302.

(2) انظر: الخولي، المرجع السابق، ص302، وعبدالسلام المسدّي، قاموس اللسانيات، ص167، وبسام بركة، معجم اللسانية، ص49.

(3) انظر: الخولي، ص262.

(4) انظر: جان كانتينو، دروس في علم أصوات العربية، ص34.

(5) انظر: السابق، الموضع نفسه.

10- الصائت أو المصوِّت: وهو الذي ينتج عن حركات تشكيلية، لاعن طريق المخارج، ويدعى بالمعتلّ كذلك.

وهناك مصطلحات أخرى سترد في أثناء الحديث مشروحة، لذلك لاداعي للوقوف عليها في هذا الحيّز من المحاضرة.

ثانياً: تعليق على محاضرة للمستشرق "شاده" حول الأصوات عند سيبويه

ألّف المستشرق شاده كتاباً باللغة الألمانية حول الأصوات عند سيبويه، وكان يدرّس في كلية الآداب بالجامعة المصرية عام 1931م. وقد ألقى شاده محاضرة لخّص فيها ماجاء في كتابه، ثم نشر المحاضرة في صحيفة الجامعة المصرية في العام نفسه، أي 1931م. وقد وقف بعض المحدثين من الدارسين على هذه المحاضرة التي لم نستطع الوصول إلى نصّها الكامل. وكان إبراهيم أنيس أبرز من ناقش المستشرق شاده فيما نقد فيه سيبويه. من ذلك – كما جاء لدى إبراهيم أنيس- [1]:

1- اعتراض شاده على استعمال مصطلح "الحرف" للدلالة على المنطوق، والحرف لدى المحدثين يدلّ على المكتوب فقط. ولشاده أن يعترض على ذلك، لكنّ علماءنا القدامى لم يجدوا حرجاً في التعبير عن المنطوق والمكتوب، بل المتصوّر بالحرف من غير خلط، إذ كان سياق الاستعمال كافياً لتحديد المقصود، علماً أنهم كانوا إذا أرادوا تخصيصاً للصوت ذكروا مصطلح الصوت صراحة دون الحرف.

2- اعتراض شاده على مصطلح "المخرج"، واقتراحه "الموضع" بدلاً منه. ويردّ أنيس عليه ذاهباً إلى أن سيبويه أصاب في مصطلحه، لأنّ المخرج مكان خروج الصوت فعلاً، أما طريق خروجه فهو "المجرى". والحقّ أن مصطلح "الموضع" الذي اقترحه شاده مصطلح يدلّ لدى سيبويه، على منطقة أوسع من مكان الخروج[2].

3- ملاحظته أن "الضاد" الآن ليست رخوة، كما ذكر سيبويه، بل شديدة. وهذا أمر مسلّم به في ضوء تغيّر مخرج الضاد في النطق الملحوظ حديثاً. ولا يبنى عليه أيّ خطأ لدى سيبويه[3].

4- ملاحظته أن "الجيم" الفصيحة ليست شديدة، كما ذكر سيبويه، بل هي مزيج من الشدّة والرخاوة. أما الجيم "الشامية" فرخوة حتماً، على حين أن الجيم "القاهرية" شديدة، كما يرى أنيس في تعليقه.

---

(1) انظر: إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص112- 114.

(2) انظر: أنيس، الأصوات اللغوية، ص113.

(3) انظر: كتابنا، مبادئ اللسانيات، ص114.

5- ملاحظته أن "القاف" و "الطاء" و "الهمزة" ليست مجهورة، بل مهموسة. ويرى أنيس أن النطق الحالي لهذه الأصوات لايؤيد كونها مجهورة، كما ذكر ذلك سيبويه، إذ هي كما دلت التجارب الحديثة مهموسة. وتبقى هنا مسألة تطوّر النطق ماثلة في أيّ تفسير جديد أو تصحيح لما تقدّم.

6- اعتراضه على معالجة القدامى عامة للحركات، واعتبارهم إياها عرضاً يصيب الحروف. ويمثل هذا الاعتراض مسألة وقف عندها الكثير من المستشرقين كهنري فليش وجان كانتينو. والحقّ أن المسألة لها تعلّق بقواعد الكتابة العربية التي ورثت من أخواتها القديمة تدوين الصوامت "الحروف الصحيحة" وحدها غالباً، وتركت تدوين الصوائت "الحروف المعتلة" الطويلة والقصيرة قبل أن تفسح المجال لابتداع تمثيل للحركات في الكتابة في العصور اللاحقة.

7- محاولته فهم الجهر والهمس وفق الدرس الحديث الذي كان يقصر تفسير الجهر على اهتزاز الوترين الصوتيين. ومهما يكن من أمر فإن شاده لايبيّن لنا بوضوح – كما يقول أنيس- مقدار فهم سيبويه لفكرة الجهر والهمس، أو فكرة الشدّة والرخاوة.

ولا بد من الإشارة إلى أن أحد أعلامنا المعاصرين، وهو الدكتور تمّام حسّان عرض في كتابه "اللغة العربية معناها ومبناها" (ط. أولى 1973) لدرس سيبويه للأصوات، بما عرف عنه من الجدّية، لكنّه لم يصل إلى شيء ذي بال في فهم تعريف الجهر عند سيبويه[1]. كما عرض له دارسون آخرون كما سنبيّن في القسم الأخير من هذه المحاضرة.

ثالثاً: الدرس الصّوتي عند سيبويه في ضوء الدرس الحديث

ذكرنا فيما تقدّم أنّ الدرس الصوتي عند سيبويه إن هو إلا حلقة في سلسلة جهود علمائنا المتقدّمين ولا سيما الخليل. فإذا صحّ أن سيبويه حامل علم الخليل، فإن ماجاء لديه في درسه الصوتي هو جزء من هذا العلم لامحالة. ولكن تبقى مسألتان مهمّتان في هذا الصدد، هما: أنّ الخليل نثر معلومات صوتية متنوّعة ساقها لإنشاء معجم شامل يستوعب الكلام العربي، ولذلك اهتم بالخصائص التشكيلية للأصوات العربية كالذلاقة ومجاورة الحرف للحرف، ونحو ذلك. على حين أن سيبويه أجمل المعلومات الصوتية النظرية وجعلها قواعد ووسائل لفهم الإدغام وحده، ولذلك جاءت معلوماته مختصرة، مع أنه عرض لمسائل كثيرة من هذا النحو في مواضع متقدّمة من كتابه. هذا (أولاً)، أما (ثانياً)، فإنّ سيبويه كان يؤلّف تأليفاً مقصوداً، فجاءت عبارته دقيقة وموجزة وغير مشفوعة بالشواهد، أو مترافقة مع استفسار، أو سؤال، أو اقتباس على عادته في كتابه. على حين أن شيخه الخليل كان يملي عادة على تلميذه الليث في كتاب العين، ويجيب

(1) انظر: تمام حسّان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص60- 63.

عن أسئلته، ويشرح المسائل، ويكرّر بعضها. فضلاً عن معلومات مختلفة نقلها عن الخليل تلامذة آخرون كالأخفش الأوسط، والنضر بن شميل، وغيرهما، مما فتح باباً لتمحيص الروايات وحلّ المعضلات التي نجمت عن طريقة الإملاء وتعدّد التلامذة.

لكنّ ذلك كلّه لايسوّغ بحال الزعم أن هناك انقطاعاً بين درس الخليل وسيبويه للأصوات، فهما من معين واحد، وإن اختلفت أدوات التناول لِما تقدّم ذكره من أسباب وظروف. وقد جزم الدكتور تمام حسّان بأن ماعرضه سيبويه هو صورة متّفق عليها بين شيوخه[1]. ولذلك بدت معلومات سيبويه منظمة وشاملة على وجازتها، وتشي بما يعيد الصلة بين الخليل وسيبويه، وهي صلة لايتصّور انقطاعها.

لقد عرض سيبويه في صفحات قليلة (نحو من خمس صفحات ونصف) لأهمّ مايدرس الآن في علم الأصوات النطقي. فهو بداية يلمّ بأعضاء النطق، ويعرف أجزاءها وأسماءها معرفة تجري في كلامه هوناً، ويكاد المرء يمرّ بها من غير تلبّث أو استغراب. وقد عرضت في بحث لي نشر في مجلة المجمع لجهاز النطق عند اللغويين العرب القدامى، وبيّنت فيه المعلومات الدقيقة التي حواها درس الخليل وسيبويه فيما يخصّ أعضاء النطق استناداً إلى المعارف اللغوية في خلق الإنسان[2]. وقد ذكرت مراراً في هذا الصدد أنّ النقص الوحيد تقريباً في معرفة جهاز النطق هو في عدم معرفة دور الحنجرة في التصويت، وعدم الوقوف على الوترين الصوتيين. علماً أن هذه المعرفة لم تكن متاحة لأحد قبل القرن السابع عشر[3].

ويحدّد سيبويه حروف العربية، أي الأصوات الرئيسة (التي تقابل الفونيمات)، كما سبق للخليل أن فعل. ثم يصف مجموعتين من الأصوات الفرعية (التي تقابل الألفونات)، إحداهما تعدّ من فصيح الكلام، وأخرى تعدّ من اللهجات المذمومة التي لايجوز استعمالها في فصيح الكلام[4]. ويدلّ هذا النحو على استقصاء للكلام العربي في مستواه الفصيح وما يقرب منه، وما يقابله من لهجات، يكذّب دعاوى الاقتصار على قطاع من قطاعات اللغة، وتجاهل ماعداه،

---

(1) انظر: السابق، ص51.

(2) انظر: البحث المذكور في مجلة المجمع الزاهر بدمشق، المجلد (76)، الجزء الأول لعام 2001م.

(3) انظر كتاب: أساسيات علم الكلام لبوردن وهاريس، ص401، وموجز تاريخ علم اللغة في الغرب لروبنز، ص200- 201.

(4) انظر: مبادئ اللسانيات، ص142 وما يليها. والفونيم هو أصغر وحدة صوتية يتغيّر بتغيّرها المعنى، نحو طاب، وتاب. فالطاء فونيم مستقل عن التاء. أما الألفون، فهو صورة نطقية للفونيم لاتؤثر في تغيير المعنى، كتعدّد نطق الجيم في العربية معطشة وغير معطشة، ونطق اللام مفخمة، ومرقّقة.

ونقص الاستقراء. ويخصّص سيبويه بعد ذلك حيّزاً لوصف الضاد الضعيفة التي عدّها من الفروع المذمومة، وهي غالباً ضاد انتقل مخرجها باتجاه الظاء طلباً للسهولة وبذل الجهد الأدنى.

ويقف سيبويه على وصف منظّم لمخارج الأصوات العربية مبتدئاً من أقصاها في الحلق إلى أدناها في الشفتين والمنخر. وهذه طريقة في عرض المخارج كان قد ابتكرها الخليل استناداً إلى تجربة أثبتت له أن مخرج الكلام كلّه من الحلق، ولذلك وجب الابتداء من الحلق باتجاه الشفتين[1]. وجعل سيبويه للأصوات العربية ستة عشر مخرجاً وصفها اعتماداً على أعضاء النطق وآلياته.

وقد أكّد الدرس الحديث أن هذا الترتيب سبّاق ومكتمل، وليس بينه وبين الدرس الحديث من فروق خلا مواضع فيها اختلاف يسير ظهر نتيجة التجارب المخبرية الحديثة[2]. وصار هذا الترتيب – كما هو معروف– أساساً لكلّ من جاء بعد سيبويه من اللغويين وغيرهم كعلماء التجويد.

ثم عرض سيبويه للصفات، فعرّف الحروف المجهورة، والمهموسة، وعدّدها، ممّا سنلقي عليه ضوءاً في القسم الأخير من هذه المحاضرة إن شاء الله. وعرّف الشديدة والرخوة وعدّدها كذلك، ثم عرض لمجموعة أخرى صارت تُصنّف ضمن الحروف المتوسّطة، أو بين الشديدة والرخوة. وقد فهمت من كلام سيبويه في هذا الصدد أمرين هما:

1– أن هذه الحروف ليست شديدة ولا رخوة، لعدم ورودها في عدّه لهذين النوعين في العبارات السابقة من كلامه.

2– أن هذه الحروف عدا العين تبدأ شديدة ثم تنصرف شدّتها باتجاه آخر لايمكّنها من الاستمرار في الشدّة. ويدلّ هذا على فهم سديد لحالة التوسّط في درجات الانفتاح التي تدرس الآن في العلوم الحديثة[3]. ويختم سيبويه حديثه عن الصفات بالوقوف على الحروف المطبقة والمنفتحة وتعدادها وشرحها شرحاً وافياً. ويذكر سيبويه الغاية من هذا العرض المستوفي لحروف المعجم (أي للأصوات العربية الرئيسة)، وهي فهم الإدغام الذي سيخصّص له ماتبقّى من كتابه. وقد وقفت على درس سيبويه للإدغام فلم أجد أيّ تناقض أو اختلاف بين ماقدّمه من معلومات نظرية وحالات تطبيقية، مما يؤكد فهمه العميق للدرس الصوتي نظراً وتطبيقاً. إن هذه المعلومات النظرية التي صدّر بها سيبويه باب الإدغام تمثل مبادئ علم الأصوات النطقي بحسب الدرس الحديث كما ذكرنا سابقاً. ولو أن سيبويه تحدّث عن الصوائت (أي حروف العلة

---

(1) انظر: كتاب العين للخليل، 47/1.

(2) انظر: مبادئ اللسانيات، ص110– 118، وقارن بـ كانتينو، دروس في علم أصوات العربية، ص32.

(3) انظر: الكتاب لسيبويه، 434/1– 435، وقارن بمبادئ اللسانيات، ص119 وما يليها.

والحركات) في هذا الباب لكانت هذه المبادئ مكتملة على إيجازها. على أنه استوفى الحديث عن الصوائت في أبواب سابقة من كتابه.

رابعاً: مفهوم الجهر والهمس عند سيبويه

لابدّ أن نقرّر بدءاً أنه من حقّ سيبويه علينا أن نعود إلى درسه كلّما جدّ جديد في علوم اللغة، أي اللسانيات، لأن ماأنجزه سيبويه في تلك الصفحات القليلة يعدّ أثراً فذّاً في تاريخ علم اللغة العالمي يؤكد أصالة علم الأصوات عند العرب والمسلمين، وسبقه، واتّصال حلقاته، وصوابه، وتوافقه ولغته التي أنشئ لأجلها، وبعده عن أيّ أثر دخيل. لكن ذلك كلّه لايمنع من وجود مشكلات خلّفها هذا الدرس، أو نجمت عن فهمه لدى الأجيال اللاحقة. من ذلك تعريف سيبويه للجهر والهمس، وشرحه لخروج الضاد الضعيفة، وعدم وضوح عرضه للحروف المتوسطة. غير أن أبرز مشكلة من هذه المشكلات ماقدّمه سيبويه من تعريف للجهر والهمس في باب الإدغام تحديداً. وقد عرض لهذا التعريف الكثير من القدامى والمحدثين محاولين فهمه والوقوف على مقاصده الدقيقة. نذكر من المحدثين المجيدين الدكتور إبراهيم أنيس والدكتور تمام حسان والدكتور غانم قدوري الحمد. ولا بأس من عرض موجز لآراء هؤلاء الأعلام.

فالدكتور أنيس يميل إلى تفسير الجهر عند سيبويه بأنه أثر لاهتزاز الوترين الصوتيين، وجمع بين تعريف سيبويه للجهر في باب الإدغام، وما ذكره السيرافي من صوت الصدر في شرحه للكتاب[1]. والرأي عندنا أن الأَولى هو فهم تعريف سيبويه للجهر في باب الإدغام بمعزل عن مفهوم صوت الصدر، ثم لابأس بعد ذلك، لا معه، من الجمع بين المفهومين[2].

أما الدكتور تمام حسّان فاجتهد على عادته في الفهم، وانتهى في شرحه تعريف الجهر إلى أن سيبويه لايعرف وظيفة الوترين الصوتيين، وهذا أمر بديهي. ولذلك استبعد إدخال اهتزاز الوترين في وسائل شرحه التعريف الوارد في باب الإدغام، وانتهى إلى أن المقصود من كلامه عن "الاعتماد" هو أثر لقوة ضغط الحجاب الحاجز مع المجهور، ولضعفه مع المهموس. فالضغط عند تمام حسّان يفسّر "الاعتماد" في كلام سيبويه. وينبغي أن نشير إلى أن هناك أصلاً لهذا التفسير لدى المستشرقين، كما ذكر كانتينو[3].

وعرض الدكتور غانم قدوري الحمد لبيان المقصود من تعريف الجهر والهمس لدى سيبويه، ووقف لأجل ذلك على آراء القدامى وبعض المحدثين، وتوصّل إلى نتيجة مقبولة، مع أنه أغفل أمرين مهمّين. الأول عدم شرحه مصطلح "الاعتماد" الوارد في تعريف الجهر لدى سيبويه.

---

(1) انظر: أنيس، الأصوات اللغوية، ص121- 122، وقارن بفليش، العربية الفصحى، ص199- 200.

(2) انظر: أنيس، الأصوات اللغوية، ص 125- 126.

(3) انظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص60- 62، وقارن بكانتينو، ص34- 35.

والثاني عدم وضوح فهمه لتضييق مجرى النفس أو انغلاقه، مما يوقع في الخلط بين الجهر والشدّة[1]. فالحمد يتابع الدكتور أنيس في تفسيره صوت الصدر الوارد لدى سيبويه والسيرافي بأنه أثر لاهتزاز الوترين، مع أن سيبويه والقدامى لم يعرفوا الوترين، إنما تلقوا أثر اهتزازهما وخمّنوا مكانهما، وهو الصدر، لأن صداهما يتردد هناك[2]. وهذا التفسير مقبول – كما أشرنا سابقاً – لكنه ينبغي أن يعالج بمعزل عن تفسير تعريف سيبويه للجهر، لأن سيبويه قصد منه شيئاً آخر. غير أن الحمد ينقل من مراجع حديثة ككتب كانتينو وفليش وأنيس أنّ سيبويه تمكّن من تصنيف الأصوات إلى مجهورة ومهموسة استناداً إلى إدراكه للفرق بين طبيعة القسمين الناتج عن اهتزاز الوترين الصوتيين، التي سماها سيبويه صوت الصدر[3]. وهذا النقل فيه مجازفة واضحة، لأن سيبويه لم يصنف الأصوات إلى مجهورة ومهموسة اعتماداً على صوت الصدر مطلقاً، إنما بناه على تعريفه الوارد في باب الإدغام الذي لم يرد فيه شيء عن صوت الصدر. أما حديث سيبويه في الموضع المتقدّم من كتابه عن الحروف المشربة فلا يصلح أساساً لاستنتاج أن تصنيف سيبويه مبنيّ عليه[4]. بل يصلح دليلاً على معرفته لآلية إخراج الأصوات مجهورة كانت أم مهموسة. وقد يقبل كلام بعض الدارسين هنا المفسّر لصوت الصدر، بأنه أثر لاهتزاز الوترين، كما تقدّمت الإشارة. لكن هذا التفسير مختلف تماماً عن الزعم أن سيبويه أقام تفريقه بين المجهور والمهموس على صوت الصدر في باب الإدغام. على أنه يمكن أن ننحّي هذا التفسير عن لبّ المشكلة التي ولّدها تعريف سيبويه في باب الإدغام، والتي مازال الاختلاف فيها قائماً.

لقد تبيّن لي أن تعريف سيبويه للجهر قابل لتفسير علمي جديد اعتماداً على تطوّر الدرس الصوتي في الغرب، ولا سيما الجانب المخبري منه. وهذا تطور بعيد عن دراساتنا الصوتية التي يغلب عليها النقل والتلخيص والاختلاف في المصطلح ويغيب عنها التجريب والتقنيات العلمية.

ويعتمد تفسيرنا الخاصّ للجهر عند سيبويه، على أمرين مهمّين ظهرا في الدرس الحديث للأصوات، مع أن معظم الدارسين العرب غفلوا عن أهميتهما في هذا الصدد. وهما:

---

(1) انظر: الحمد، الدراسات الصوتية، ص131.

(2) انظر: السابق، الموضع نفسه.

(3) انظر: كانتينو (مرجع سابق)، ص34، وفليش، العربية الفصحى، ص200، وأنيس، الأصوات اللغوية، ص121– 122.

(4) انظر: الكتاب، 174/1– 175. ولا شكّ في أن هذا التفسير يعتمد على مانقله إبراهيم أنيس وهنري فليش من شرح السيرافي منسوباً إلى سيبويه من التفرقة بين المجهور والمهموس استناداً إلى صوت الصدر. ولا يصلح هذا الكلام المنسوب إلى سيبويه بديلاً لتعريفه الوارد في باب الإدغام.

أولاً: تطوّر مفهوم الجهر باتجاه إدخال عناصر أخرى فيه. إذ مرّ زمن كان الجهر متوقفاً على ذبذبة الوترين في الحنجرة وحدها. لقد ذهب الدرس الحديث مذهباً بعيداً حين أقرّ أن الجهر يمكن أن يحدث من غير ذبذبة واضحة في الوترين[1].

ثانياً: اتجاه الدرس الحديث إلى فحص دور المجرى الصوتي في الجهر بعيداً عن الحنجرة. فالدرس المشار إليه صار يميّز بين نوعين من الرنين، أحدهما: دوري ومصدره الحنجرة، والآخر غير دوري (أو لادوري) ومصدره الفجوات (الفراغات) المرنانية في المجرى الصوتي.

وقد ظهر لي أنه من الضرورة بمكان استعمال هذين الأمرين في سبيل الوصول إلى تفسير جديد للجهر عند سيبويه، بالاقتصار على تعريفه، ومن غير حاجة إلى احتساب عمل الوترين في ذلك قطعاً. وتنبغي الإشارة إلى أنّ جلوريا بوردن وكاثرين هاريس الباحثتين في مختبرات هاسكنز في الولايات المتحدة قدّمتا تحليلاً متكاملاً لدلائل الجهر، وعرضتا وصفاً للمجرى الصوتي، وشرحتا الفجوات المرنانية الكبرى التي يضمّها. فالمجرى الصوتي فوق الحنجري يضمّ الفجوة البلعومية (فوق الحنجرة حتى منفرج الفم)، والفجوة الفموية، والفجوة الأنفية (أو التجويف الأنفي). ويمكن تغيير أشكال الفجوة من خلال حركات أعضاء النطق، ولذلك فإن سمة المرنان الصوتي الإنساني الأساسية هي أنه يمكن تغيير شكله. ويؤدي هذا التغيير إلى تغيّر الترددات الرنينية لكل صوت[2]. وتنتهي الباحثتان إلى أنّ الأصوات المجهورة لها مصدران: أحدهما في الحنجرة، والثاني في فجوات المجرى الصوتي فوق الحنجري، لأن هذه الفجوات تعمل على رنين هذه الأصوات أيضاً، إضافة إلى ذبذبة الوترين. ولذلك يوصف الصوت المجهور لديهما بأنه مزيج من الرنين الدوري (في الحنجرة)، واللادوري (في المجرى الصوتي). أما الصوامت غير المجهورة فإن الوترين ينفتحان معها على نحو واسع لكي نحصل على حجم كافٍ من هواء الرئتين لإيجاد الضوضاء أو الضجيج المطلوب في المجرى الصوتي لإحداث هذه الأصوات التي لها مصدر واحد هو المجرى الصوتي فوق الحنجري[3].

يقول سيبويه في تعريفه الجهر: "فالمجهورة: حرف أشبع الاعتماد في موضعه، ومنع النَّفَس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد (عليه) ويجري الصوت. فهذه حال المجهورة في الحلق والفم، إلا أن النون والميم قد يعتمد لهما في الفم والخياشيم فتصير فيهما غنّة. والدليل على ذلك أنك لو أمسكت بأنفك ثم تكلّمت بهما لرأيت ذلك قد أخلّ بهما ". أما تعريفه الهمس فهو

---

(1) انظر: جلوريا بوردن وكاثرين هاريس، أساسيات علم الكلام، ص133.

(2) انظر: السابق، ص169- 174، وص330- 334.

(3) انظر: السابق، ص148.

"... حرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النَّفَس معه وأنت تعرف ذلك إذا اعتبرت فردّدت الحرف مع جري النفس. ولو أردت ذلك في المجهورة لم تقدر عليه"[1].

فسيبويه يرى – فيما نقدّر– أن المجهور حرف (أي صوت) فيه زيادة في التصويت، لأن "الاعتماد" يدلّ على إجراء الصوت مع قوّة وإنفاذ، ولا علاقة له بأي أثر لاهتزاز الوترين كما فهم بعض المحدثين. أما "موضعه" فواضح الدلالة ولا يحتاج إلى تأويل، لأن سيبويه ذكر لاحقاً المواضع، وهي: الحلق والفم والخياشيم. إذن فالقصد واضح لالبس فيه، ولا يحتمل تأويل من زعم أن "الموضع" عنده يعادل "المخرج". وكأن سيبويه يلقي الكلام جزافاً، أو يراوح بين استعمالين من غير فرق ثمّ.؟ ويفهم من "منع النّفس" أن النفس الخارج مع الصوت قليل، ويكاد لايُحسّ به، لأن المجهور يعتمد على نفس محصور فيه ذبذبات عالية، على حين أنّ المهموس يحتاج إلى هواء كثير وقوة في إخراج النفس، لأنه لايتقدّر للتصويت من غير هذا النفس الكثير الذي يحدث "الضوضاء" الضرورية لإسماع الصوت المهموس. ولذلك فإن "منع" النفس، لايمنع خروج الصوت. فالمجهور يخرج واضحاً من غير نفس كثير، ولذلك يبدو النفس ممنوعاً من الخروج حتى تتغير جهة التصويت، أو يوقف على المجهور بنفخ أو نحوه.

أما قوله: "ينقضي الاعتماد" فيشير إلى نهاية حالة التصويت القوية المعتمدة على "حصر" الهواء في الفراغات المرنانة في المجرى الصوتي. وقوله "ويجري الصوت"، أي ينتهي الحصر فيكتمل نطق الصوت المجهور من غير أن يكون هناك "منع" للصوت. لأن منع الصوت – كما ذكر سيبويه لاحقاً– هو سمة للشديد لاللمجهور[2]. وقد أحسن الدكتور إبراهيم أنيس في بيان خروج المهموس عن طريق الهواء الكثير الذي يندفع في الحلق والفم ويولد ذبذبات ضعيفة ليس لها أثر قوي في السمع. ومن هنا – كما يقول– جاء خفاؤها أو همسها. ومن هنا أيضاً تميّز المجهور من المهموس[3].

ووصف سيبويه للمجهورة محدّد في ثلاثة مواضع لامخارج، وهو يعي ذلك حتماً. هي: الحلق (على عمومه)، والفم، والخياشيم (الفراغ الأنفي). فالمجهورة عدا الباء والميم لها موضعان هما الحلق (الفراغ البلعومي) والفم. أما الفراغ الأنفي فيشترك مع الفم لتوليد "الغنّة" المصاحبة لنطق النون والميم، وهي من دلائل الجهر بسبب مافيها من قوّة. وتوزع الحروف المجهورة وفق المواضع على النحو الآتي:

1– الألف، والهمزة، والعين والغين (الحلق).

---

(1) انظر: الكتاب، 434/4.

(2) انظر: الكتاب، 434/4.

(3) انظر: أنيس، الأصوات اللغوية، ص123.

2- القاف والجيم والياء والضاد واللام والنون والراء والطاء والدال والزاي والظاء والذال (الفم، من مخارجه المتعدّدة).

3- الباء والميم والواو (الشفتان).

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ الحلق عند القدامى موضع لثلاثة مخارج توزع في الدرس الحديث على ثلاث تسميات، هي الحنجرة والحلق والطبق[1].

وكلام سيبويه واضح في الدلالة على أنّ الفم (مع الشفتين ضمناً) يشترك مع الخيشوم في توليد الغنة لحرفي النون والميم. وهذه الغنة جزء من الصوت، ولذلك فهي تختلف عن الغنة التي تمثل "جسم" النون الساكنة المخفاة (أي مع حروف الإخفاء)، وهي التي جعل سيبويه لها مخرجاً مستقلاً[2]. فالميم صوت شفوي تتصل الشفتان حين النطق به، ويهبط الطبق فينفتح المجرى الأنفي ويمرّ الهواء منه، في حين تحدث ذبذبة في الوترين الصوتيين بحسب الدرس الحديث. أما النون فصوت لثوي أنفي، ينطق به بجعل طرف اللسان ضدّ اللثة مع خفض الطبق لفتح المجرى الأنفي وإحداث ذبذبة في الوترين الصوتيين. فسيبويه حين عرض للمخارج لم يذكر شيئاً عن غنة النون والميم، بل نسب النون إلى طرف اللسان وفويق الثنايا، ونسب الميم إلى الشفتين من غير احتساب لأي عنصر آخر[3]. ويدلّ هذا على وعي سيبويه للفرق بين الموضع والمخرج كلما استدعى التدقيق ذلك. ومن هنا استنتج أنّ الغنة المرافقة للميم والنون يتردّد صداها في الفم والخياشيم بسبب حصر الهواء في الفراغ الأنفي كليّاً مع الميم، وجزئياً مع النون، وجعل ذلك من "الاعتماد" مستقلاً عن تحديد المخرج.

أما تعريفه المهموس فأمره أهون بكثير ممّا رأينا في تعريف المجهور. فالمهموس "حرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه، وأنت تعرف ذلك إذا اعتبرت فردّدت الحرف مع جري النفس. ولو أردت ذلك في المجهورة لم تقدر عليه"[4]. ويؤكد هذا التعريف أن معيار سيبويه قائم على منع النفس مع المجهور، وجريانه مع المهموس الذي يخرج مع هواء كثير يتيح له أن يكون مستمرّاً، ومن غير أن يصدر عن حصر أو حبس، أو قلة في الهواء لها طابعان من ذبذبات حنجرية وأخرى فوق حنجرية. لكن "الاعتماد"، أي قصد التصويت في المهموس موجود أيضاً. وهكذا نخلص إلى أنّ سيبويه عبّر في تعريفه الوارد في باب الإدغام للمجهور والمهموس عن تحسّسه لعملية التصويت القصدية متجهاً إلى المواضع لاالمخارج، إذ

---

(1) انظر: مبادئ اللسانيات، ص107- 108.

(2) انظر: الكتاب، 434/1.

(3) انظر: السابق، 433/1.

(4) انظر: السابق، 434/1.

فرّق بين منع الصّوت مع الشديد، ومنع النفس مع المجهور. فكل منهما له مكان مختلف. فالشديد يحصر الصوت كاملاً في المخرج، على حين أن المجهور يحصر النفس (أو معظمه) في الموضع. ولذلك كانت الأصوات الشديدة المجهورة أقوى الأصوات.

وننتهي إلى أن فهم سيبويه كان ينصبّ على بيان تمكّن المجهور وقوّته ووضوحه، أي مايعادل المقصود تقريباً بالوضوح السمعي (sonority)، وليس بيان أثر اهتزاز الوترين، أي مايعادل (voiced). على أنني أكتفي بهذا مراعاة للوقت، وأعد بأن أتابع هذا البحث في دراسة مستقلّة سأشرع فيها لاحقاً إن شاء الله.

وأخيراً أودّ أن أزجي كلمة شكر وتقدير إلى أساتذتي وزملائي أعضاء المجمع لتشجيعهم لي على الوقوف أمامهم في هذه الساعة التي عرضت فيها قراءتي للدرس الصوتي لدى سيبويه، وهي نتاج سنوات من البحث المتواصل. كما أشكر جمهور المستمعين من العلماء والباحثين على حضورهم وصبرهم، راجياً أن يكون ماقدّمته بين أيديهم مناسباً ووافياً بالغرض.

والله الموفق. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

المصادر والمراجع

أ- الكتب

1- أنيس، إبراهيم، الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط. رابعة 1971م.

2- بركة، بسّام، معجم اللسانية، منشورات جرّوس – برس، طرابلس، لبنان.

3- بوردن، جلوريا، وهاريس، كاثرين، أساسيات علم الكلام، ترجمة محيي الدين حميدي، دار الشرق العربي، بيروت وحلب، د.ت.

4- حسّان، تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط. ثانية 1979م.

5- الحمد، غانم قدّوري، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، بغداد 1986م.

6- الخولي، محمد علي، معجم علم اللغة النظري، مكتبة لبنان، بيروت 1982م.

7- روبنز، موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، ترجمة أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، رقم (227)، تشرين الثاني لعام 1997م.

8- سيبويه، الكتاب، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون، عالم الكتب، بيروت، د.ت.

9- الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الهجرة، قم بإيران 1405 هـ.

10- فليش، هنري، العربية الفصحى، تعريب وتحقيق عبدالصبور شاهين، دار المشرق، بيروت 1983م.

11- قدور، أحمد محمد، مبادئ اللسانيات، ط. ثالثة، دار الفكر بدمشق 2008م.

12- كانتينو، جان، دروس في علم أصوات العربية، ترجمة صالح القرمادي، الجامعة التونسية 1966م.

13- المسدّي، عبدالسلام، قاموس اللسانيات، الدار العربية للكتاب، يونس 1984م.

ب- الدوريات

قدور، أحمد محمد، جهاز النطق عند اللغويين العرب القدامى، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد (76)، الجزء الأول لعام 2001.